بمناسبة ذكرى الثالثة والستون ثورة اكتوبر والحركة التشكيلية

التشكيلي في الاتحاد ... جديدة وفريدة ... للقرن العشرين. ... مسار ونطور التشكيل ... عن الفن الغربي على ... وجود بعض الصفات ... وادا كان الفن ... الحياة البرجوازي ... عموما عن الاحتجاج ... فضلا عن مختلف ... الحالي .. فقد نما ... وتكون كحلقة عضوية ... الثقافة الاشتراكية .. ... جميع القيم الروحية ... في متناول اوسع ... ، وذلك بناء ... العائلة : " لا بدّ ان ... من الشعب وان يقترب ... الفن " بهدف تنوير ... باللوحة والتمثال .. ... الحركة التشكيلية ... عنها اخراج الفن ... وخلق اعمال جديدة ... الواقع الثوري الجديد ، ... للمشاكل الاجتماعية ... وبكل الاساليب ... من واقعية القرن ... حتى احدث ما تفتقت ... الطليعيين ".وفي هذه ... تنفيذ اقتراح لينين ... بين النماثيل للثوريين ... العلم والثقافة .. ... الدمار الاقتصادي الذى ... الجمهورية الفتية وحرب ... الحرب الاهلية .. ... الرغبة في ايجاد ... الناس وفهم نفسيتهم ... ، الى الانعطاف نحو ... ، ولم يكن ذلك ... ضغط اداري وانما ... العان بقضايا الانسان ... فقد ادت نفس ... السوفيتي للاتجاه ... البرجوازي القديم ... الفرنسي لعامي ١٧٨٩ و ١٨٤٨ وواقعية الفن الايطالي في القرن الخامس عشر والهولندي في القرن السابع عشر..

وبجدر الاشارة بان الاساليب التعليمية الساذجة والتهيب الشكلي والوصفية الخارجية ارتبطت ببعض نتاجات الفنانين السوفييت حتى عام ١٩٣٢ . غير انّه من الخطأ القول ، كما تجهد بعض الاوساط في الغرب ، بان هذه السلبيات كانت قانونا عاما دمغ كل ابداعات الفنانين السوفييت..

ولا بد من التاكيد كذلك بان لا يجب تصور تاريخ الفن في الاتحاد السوفييتي كصورة موكب فيه جنة للجميع .. لقد جرى صراع مرير وقاسي من اجل اعادة البناء الجمالي والايديولوجي للمواطنين الذين يشكل الفلاحون ٨٥ بالمئة منهم مع كل ما يعني ذلك من اميّة وتخلف .. ولذلك لم يفهم العديد من الفنانين اهمية الثورة وتركوا وطنهم الى المهجر .. ولكن العديد من هؤلاء سرعان ما عادوا للوطن متابعين انتاجهم الابداعي ..ولم يكن صدفة انه في هذه الفترة بالذات انجزت لوحة الدفاع عن بتروغراد" لديتيكا ، و " موت المفوض السياسي لبتروف فودكين .. وفي هذه الفترة تمت ابداعات خصبة في المؤلفات التي تتناول الفكر الجمالي والثقافة التشكيلية .. كما جرى في هذه المرحلة التطور الحر للثقافات الفنية القومية لجميع الشعوب التي تقطن البلاد السوفييتية .. ووجد في هذه القوميات مجموعات من فناني الدرجة الاولى . وباختصار فقد ظهر في الثقافة التشكيلية للثلاثينات حماس رومانسي ، ونظرة الى المستقبل ، وحاجة ظاهرة بوضوح للجمال والتناسق .

واستمرت عجلة الفن في التقدم ففي نهاية الثلاثينات تراجعت المهام التنويرية لاصف الثاني وتقدمت في الطليعة مهمة الوصول للفن الراقي ذى المضمون الروحي العميق والمشبع بالمضامين الطبقية والانسانية .. وفي هذه المرحلة كان الفن الغربي غارقا في ازمته الجمالية .. وحتى الفن التقدمي في الغرب " المدافع عن الانسان" لم يعد فنا "عن الانسان" اما الفن السوفييتي فتابع طريقه في اتجاه الحق والخير والجمال والبطولة للانسان الجديد .. انسان المجتمع الاشتراكي وريث افضل التقاليد الجمالية منذ ارسطو حتى القرن العشرين .. والمبشّر بازدهار الشخصية المتطورة ...

في هذا الوقت ظهر ما اعتبره بعض النقاد اعظم عمل تشكيلي في تاريخ الفن السوفييتي ، بل والفن العالمي قبل دافيد لانجيلو والمارسيليز على قوس النصر بباريس والمعني هنا ، تمثال "العامل والفلاحة" (٣٢ – ١٩٣٤) لفيرا موخينا .. والذى جسّد المذهب المعروف بالواقعية الاشتراكية..

وبجدر التوقف عند الواقعية الاشتراكية التي واجهت من اكاذيب وتشهيات الاعداء الطبقيين ما لم يواجهه اى منهج ابداعي آخر . وعلى اية حال فإن اول ما يجب التاكيد عليه هو عدم جواز المطابقة بين الواقعية الاشتراكية وبين اى نمط او اسلوب او نوع من الفنون.. وقد اكدت كل المصادر والوثائق السوفييتية في الفن والادب بأن الواقعية الاشتراكية تبحث عن الاتجاه الداخلي للعمل الابداعي وعن العلاقة بالواقع وليس عن الاسلوب . فالواقعية الاشتراكية هي مفهوم تاريخي وبالتالي متطور يتناول محتوى الفن وفهمه للواقع من وجهة نظر الطبقة العاملة ، اى وجهة النظر الاكثر موضوعية والاكثر علمية بين كل وجهات النظر المطروحة في عالمنا المعاصر .. ولم يتضمن منهم الواقعية الاشتراكية اى قواعد شكلية ثابتة ..وبالتالي فان استعراض تاريخ الفن السوفييتي يؤكد حقيقة انه كان فنا متنوعا للغاية من حيث بنائه الشكلي وانواعه الفنية .. ويمكن ان يلمس الناقد بين الاساليب الفنية التشكيلية في الاتحاد السوفيتي : الرومانسية الديناميكية ،والاسلوب الغرافيكي الصارم ، وروح البوروكو وواقعية دامييه وكوربيه ولمسات الانطباعيين وما بعد الانطباعيين واساليب "المتنقلين" (البريدفيجنيكي) .

ولهذا فان الواقعية الاشتراكية يجب النظر اليها كمجموعة من القواعد والمقاييس الشكلية للمؤلفات الفنية الواقعية وانما كمبدأ في الابداع حي ومتطور ، وهو متطور لانه لا توجد واقعية اشتراكية خارج الصلة العضوية بحياة الشعب . وما ان يتغيّر الشعب ويتقدم التاريخ وينمو وعي الناس ويتعقد ، حتى تتغير اساليب الواقعية الاشتراكية معها ايضا بالضرورة .. والامر الثابت هو :الشكل المتنوع .. والجوهر الاجتماعي والانساني والعلمي والواقعي للعمل الابداعي مضافا اليه الافق التاريخي المتفائل المستند الى حقيقة الحياة وقوانين التطور الاجتماعي .

ولقد اكدت سنوات الحرب الثانية والفشل العسكرى الذى حاق بالاتحاد السوفييتي وقساوة سني الحرب ومرارتها ، صلابة الاحساس الاجتماعي الذى استندت اليه الواقعية الاشتراكية . وغدا الفن سلاحا نضاليا حقيقيا في الكفاح ضد الهتلريين ورسمت لوحات ذات مضمون بطولي وتراجيدى كبير .. الامر الذى لم تبلغه ابدا الحركة التشكيلية في الغرب — فتحت القصف وانناء التراجع والهجوم تفولذت الحركة التشكيلية بروحية جديدة واصبحت اكثر جدية وتبصرا وانسانية .

لقد حملت الحرب والسنوات التي تلت تغيرا في حياة الشعوب السوفييتية ، واصبح جمهور الفن يختلف عما كان عليه منذ ثلاثين عاما وذلك بسبب نقل المصانع الى الشرق وازدياد الكثافة السكانية في المدن وازدياد اصحاب العمل العقلي وتطور التكنولوجيا العاصف وتاثير الطاقة الذرية والحرب الباردة والامر الذى اثر على سيكولوجية الناس واثر بطريقة او باخرى على مصائر الفن ووضع امامه مهمة تلبية الحاجات الروحية المعقدة للانسان ونموّه الفكرى والحضارى وتاملاته الفلسفية ومعاناته الوجدانية وحاجاته لتزيين المدن والمؤسسات والبيوت ..ومن اجل تلبية كل هذه المطالب الحضارية والانسانية واصلت الحركة التشكيلية السوفييتية اخلاصها للمبادئ الاساسية للنظام الاشتراكي والروح الحزبية والطبقية مسهمة في قضية تحرير الانسانية من كل اشكال العبودية الاجتماعية ... ولم يعرف الفن السوفييتي بعد الحرب ولو لدقيقة واحدة الجو الروحي لخيبة الامل المريرة التي تميز بها " الجيل الضائع " و " الجيل الصاخب " في الغرب وما رافق ذلك من فوضوية وعبثية ووجودية ومخدرات وجرائم ويأس وهروب ..

وقد جاء في المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي على لسان بريجنيف قوله : " اننا نؤيد موقف العناية بالبحوث الخلاقة ، والكشف الشامل عن فردية المواهب والقابليات ، وتنوع وغنى الاشكال والاساليب ، والموضوعة على اساس منهج الواقعية الاشتراكية ان قوة القيادة الحزبية تكمن في قدرتها على جعل الفنان مولعا بالمهمة النبيلة ، مهمة خدمة الشعب ، وجعله مساهما مخلصا في تحويل المجتمع على اسس شيوعية"

ويمكن القول ان اهم خواص المرحلة الحديثة للفن السوفييتي تتمثل في توسيع وتجديد الفن الواقعي بالارتكاز على فن الايقونة الروسية ، والفولكلور القومي المتعدد الاشكال ،والحركة التشكيلية العالمية

ولقد وجدت مع ذلك بعض التوجهات المحافظة في الحركة التشكيلية كما لجا بعض الفنانين لتقليد ماريتس وبيكاسو وموور ... الا ان الخط الاساسي للفن السوفييتي تمثل في خلق المستقبل ودون تكرار الماضي . ولم يكن الفن السوفييتي في هذه المرحلة بعيدا عن الذاتية ولكنها ذاتية مرتبطة بالواقع الحقيقي وعلى العكس تماما لما يجرى في الغرب ...

ولا يمكن الادعاء بان كل فنان سوفييتي يجد طريقه على الفور فالاكتشافات الفعلية تتجاور مع العثرات والاقدام الابداعي لا ينفي احيانا التظاهر بالاصالة والركض وراء الموضة عند بعض الفنانين .

والفنان السوفييتي اليوم ابعد ما يكون عن الانغلاق ، وهو حساس جدا لمتطلبات المهارة وتثيره بحدة مشاكل الشكل .. ثم هناك اهتمام خاص بالمدارس الفنية للقوميات العديدة في الاتحاد السوفييتي....

لقد اثبتت التجربة التشكيلية السوفييتية ان الفن يتقدم جرّاء الصراع ضد المظالم ولكنه لا يسير في خط مستقيم ، كما ثبت كذلك بأن الفن هو غاية ووسيلة ..

وكلمة اخيرة فان منهج الواقعية الاشتراكية لا ينطبق على الابداع السوفييتي وحسب وانما له تاثيره ووزنه على المستوى العالمي لان هذا المذهب يعكس الوزن الجمالي للطبقة العاملة المتواجدة في كل بلدان العالم . باختصار عن كتاب " الاشتراكية والثقافة "

دار التقدم

لينين — النحات اندريف — ١٩٣٢

العامل والفلاحة للنحاتة فيرا موخينا — من الفولاذ الذى لا يصدأ ١٩٣٧

الدفاع عن سيباستبول للفنان ديتيكا — ١٩٤٤

حامل العلم للفنان كورجيف ١٩٥٨ — ١٩٦٠